وَقَالَ غيره: «أَلَيْسَ يَسْتَغْفِرُ لِطَالِبِ العِلْمِ كُلُّ شَيْءٍ؟ أَفَكَهَذَا مَنْزِلَةٌ»[١].

▪ وَقِيلَ: العَالِمُ كَالْعَيْنِ العَذْبَةِ، نَفْعُهَا دَائِمٌ.

▪ وَقِيلَ: العَالِمُ كَالسِّرَاجِ، مَنْ مَرَّ بِهِ اقْتَبَسَ.

▪ وَقِيلَ: العِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ المَالَ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْكَ، وَأَنْتَ تَدْفَعُ عَنِ المَالِ[٢].

▪ وَقِيلَ العِلْمُ حَيَاةُ القُلُوبِ مِنَ الجَهْلِ، وَمِصْبَاحُ البَصَائِرِ فِي الظُّلَمِ، بِهِ تُبْلَغُ مَنَازِلُ الأَبْرَارِ وَدَرَجَاتُ الأَخْيَارِ، وَالتَّفَكُّرُ فِيهِ وَمُدَارَسَتُهُ تُرَجَّحُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَصَاحِبُهُ مُبَجَّلٌ مُكَرَّمٌ.

▪ وَقِيلَ: مَثَلُ العَالِمِ مَثَلُ الحَمَّةِ، تَأْتِيهَا البُعَدَاءُ، وَيَتْرُكُهَا الأَقْرِبَاءُ، فَبَيْنَا هِيَ كَذَلِكَ إِذْ غَارَ مَاؤُهَا، وَقَدِ انْتَفَعَ بِهَا، وَبَقِيَ قَوْمٌ يَتَفَكَّنُونَ، أَيْ يَتَنَدَّمُونَ.

▪ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: الحَمَّةُ -بِفَتْحِ الحَاءِ- عَيْنُ مَاءٍ حَارٍّ يُسْتَشْفَى بِالِاغْتِسَالِ فِيهَا.

▪ وَقَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَلَبُ العِلْمِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ النَّافِلَةِ»(١).

▪ وَقَالَ: «لَيْسَ بَعْدَ الفَرَائِضِ أَفْضَلُ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ»(٢).

---

[١] يَعْني: أيوجد منزلةٌ مِثل هذه المنزلة؟ كلُّ شيْءٍ يستغفر لطالب العِلم، أهل السماء، وأهل الأَرْض، حتى الحِيتان في البحار تستغفر له.

[٢] كل هذه عباراتٌ صحيحة.

---

(١) مسند الشافعي، ترتيب السندي (١/ ١٨).

(٢) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣١٠).

▪ وَقَالَ: «مَنْ أَرَادَ الدُّنْيَا فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ فَعَلَيْهِ بِالْعِلْمِ»(١)[١].

▪ وَقَالَ: «مَنْ لَا يُحِبُّ العِلْمَ فَلَا خَيْرَ فِيهِ، فَلَا يَكُنْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَعْرِفَةٌ، وَلَا صَدَاقَةٌ»[٢].

▪ وَقَالَ: «الْعِلْمُ مُرُوءَةُ مَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ»(٢).

▪ وَقَالَ: «إِنْ لَمْ تَكُنِ الْفُقَهَاءُ العَامِلُونَ أَوْلِيَاءَ اللهِ، فَلَيْسَ للهِ وَلِيٌّ»(٣).

▪ وَقَالَ: «مَا أَحَدٌ أَوْرَعُ لِخَالِقِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ»(٤).

▪ وَقَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ عَظُمَتْ قِيمَتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي الفِقْهِ نَبُلَ قَدْرُهُ،...

---

[١] هذه العِبارَة كنا نحفظها هكذا: مَن أراد الدُّنيا فَعَلَيْه بالعِلم، ومَن أراد الآخِرَة فعَليه بالعِلم، ومَن أراد الدُّنيا والآخرة فعَليه بالعِلم.

والدُّنيا -في الواقع- لَيْسَتْ بأَنْ يَكُونَ الإِنسَان عنده أموالٌ كثيرة، الدُّنيا أَنْ يَكُونَ الإِنسَان في الدُّنيا مُحْتَرَمًا مُعَظَّمًا مُبَجَّلًا، وهذا يَحصُل بالعِلم، ولذلك تجد العُلَماء لهم مِن التكريم والتعظيم في قلوب النَّاس أكثر مِن ذَوِي الأموال.

[٢] الله المستعان، لَوْ طَبَّقْنَا هذا اليوم، لكان الأصدقاء قَلِيلِينَ.

---

(١) ذكرة جمال الدين الحبيشي الوَصَابي الشافعي في نشر طيّ التعريف في فضل حملة العلم الشريف والرد على ماقتهم السخيف (ص:١٦٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٤٠).

(٣) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٧٤).

(٤) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ١٧٣).

وَمَنْ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ رَقَّ طَبْعُهُ»(١)[١].

وَمَنْ نَظَرَ فِي الحِسَابِ جَزُلَ رَأْيُهُ، وَمَنْ كَتَبَ الحَدِيثَ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ لَمْ يَصُنْ نَفْسَهُ لَمْ يَنْفَعْهُ عِلْمُهُ[٢].

■ وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي أَوَّلِ كِتَابِ الفَرَائِضِ مِنْ صَحِيحِهِ(٢): قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا قَبْلَ الظَّانِّينَ».

قَالَ البُخَارِيُّ: يَعْنِي الَّذِينَ يَتَكَلَّمُونَ بِالظَّنِّ، وَمَعْنَاهُ تَعَلَّمُوا العِلْمَ مِنْ أَهْلِهِ المُحَقِّقِينَ الوَرِعِينَ قَبْلَ ذَهَابِهِمْ، وَمَجِيءِ قَوْمٍ يَتَكَلَّمُونَ فِي العِلْمِ بِمِثْلِ نُفُوسِهِمْ، وَظُنُونِهِمُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا مُسْتَنَدٌ شَرْعِيٌّ[٣].

---

[١] الظَّاهر أنَّ مُرَادَه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «**مَنْ نَظَرَ فِي اللُّغَةِ**»: يَعْني: في كلام العرب، وما إلى ذلك، «**رَقَّ طَبْعُهُ**»، لأن فيها شيئًا مِن الآداب والأَخْلاق.

[٢] هذا صَحيح، يَقول الشاعر:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا

وَلَكِنْ أَهَانُوهُ فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بِالْأَطْمَاعِ حَتَّى تَجَهَّمَا(٣)

ولهذا يَنْبغِي أَنْ يَكُونَ طالب العِلم أبعدَ النَّاس عن الدَّناءة، والنظر لما في أيدي النَّاس، حتى يَصُون عِلمه فيُصَان.

[٣] **هذه مِن أهمِّ الوصايا**: تعلَّموا العِلم مِن أهله قَبل الظانِّين؛ فكثير مِن النَّاس

---

(١) أخرجه البيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (١/ ٣٢٤).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الفرائض، باب تعليم الفرائض.

(٣) البيتان للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، في محاضرات الأدباء، رقم (١/ ٥٢).

.....

الآن -مع الأسف الشديد- يَتَجَاسَرُ ويتهاون؛ فتَجِدُه لَيْسَ عنده إلا الشيْء اليَسير مِن العِلم، ثم إذا قام يتكلم كأنما هو أُعطي العِلم كُلَّهُ.

ولَيْتَهُ يَقول: هذا كتاب الله، وهذه سُنَّة رسول الله؛ وإنَّما يَقول: لا؛ هذا الذي أرى، أنا أرى كذا وكذا، بِدُونِ مستند، ثم تَجِدُه يُجمل ويُفصِّل ويَنفي، ويُثبت مِن غير عِلم.

فَصْلٌ فِي: تَرْجِيحِ الاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ عَلَى الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ العِبَادَاتِ القَاصِرَةِ عَلَى فَاعِلِهَا

قَدْ تَقَدَّمَتِ الآيَاتُ الكَرِيمَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقَوْله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

- وَمِنَ الأَحَادِيثِ مَا سَبَقَ، كَحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ».
- وَحَدِيثِ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».
- وَحَدِيثِ: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ».
- وَحَدِيثِ: «فَضْلُ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».
- وَحَدِيثِ: «فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ الفِ عَابِدٍ».
- وَحَدِيثِ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا».
- وَحَدِيثِ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى».
- وَحَدِيثِ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا»[1]، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ.
- وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَإِذَا فِي المَسْجِدِ مَجْلِسَانِ: مَجْلِسٌ يَتَفَقَّهُونَ، وَمَجْلِسٌ يَدْعُونَ اللهَ وَيَسْأَلُونَهُ، فَقَالَ:

(١) تقدم تخريج هذه الأحاديث.

«كِلَا المَجْلِسَيْنِ إِلَى خَيْرٍ أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى[١]، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَتَعَلَّمُونَ وَيُفَقِّهُونَ الجَاهِلَ، هَؤُلَاءِ أَفْضَلُ، بِالتَّعْلِيمِ أُرْسِلْتُ». ثُمَّ قَعَدَ مَعَهُمْ.

رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ بْنُ مَاجَهْ[١].

■ وَرَوَى الخَطِيبُ الحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ ثَابِتٍ البَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ كِتَابُ الفَقِيهِ وَالمُتَفَقِّهِ أَحَادِيثَ وَآثَارًا كَثِيرَةً بِأَسَانِيدِهَا المُطَرَّقَةِ مِنْهَا عَنِ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الجَنَّةِ فَارْتَعُوا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا رِيَاضُ الجَنَّةِ؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ، فَإِنَّ للهِ سَيَّارَاتٍ مِنَ المَلَائِكَةِ يَطْلُبُونَ حِلَقَ الذِّكْرِ، فَإِذَا أَتَوْا عَلَيْهِمْ حَفُّوا بِهِمْ»[٢][٢].

■ وَعَنْ عَطَاءٍ قَالَ: «مَجَالِسُ الذِّكْرِ هِيَ مَجَالِسُ الحَلَالِ[٣] وَالحَرَامِ[٣]،...

---

[١] قوْل الرَّسول ﷺ: «أَمَّا هَؤُلَاءِ يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى» في المجلس الذين رآهم الرَّسول ﷺ، هل يُستفاد منه جوازُ الدعاء الجماعيِّ؟

نقول: لا ندْري: هل كان كلُّ واحدٍ يدعو لنفْسِه، أو هُم جميعًا؛ هذا لَيْسَ بظاهر.

[٢] ومِن أفضل حِلَقِ الذِّكر حِلَقُ تعليم القرآن؛ لقول النَّبي ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٤].

[٣] قوْله: «هِيَ مَجَالِسُ الحَلَالِ وَالحَرَامِ»، يَعْني: المكان الذي يُعرَف فيه الحلال والحرام.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٩).

(٢) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ٤٣).

(٣) في المطبوعة: (مجال الخلال)، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.

(٤) أخرجه البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم (٥٠٢٧).

كَيْفَ تَشْتَرِي وَتَبِيعُ وَتُصَلِّي وَتَصُومُ وَتَنْكِحُ وَتُطَلِّقُ وَتَحُجُّ، وَأَشْبَاهُ هَذَا»[1].

▪ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَجْلِسُ فِقْهٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً»[2][1].

▪ وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَسِيرُ الفِقْهِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرِ العِبَادَةِ»[3].

▪ وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَقِيهٌ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ ألفِ عَابِدٍ»[4].

▪ وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَفْضَلُ العِبَادَةِ الفِقْهُ»[5].

▪ وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «مَا نَحْنُ لَوْلَا كَلِمَاتُ الفُقَهَاءِ».

▪ وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْعَالِمُ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الصَّائِمِ القَائِمِ الغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ».

▪ وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: «بَابٌ مِنَ العِلْمِ نَتَعَلَّمُهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ الفِ رَكْعَةِ تَطَوُّعٍ، وَبَابٌ مِنَ العِلْمِ نَعْلَمُهُ، عُمِلَ بِهِ، أَوْ لَمْ يُعْمَلْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ مئة رَكْعَةٍ تَطَوُّعًا».

---

[1] الله أعْلَم بصحة هذا.

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٣/ ٢٩٤، رقم ٢٢٩٩)، وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٩٥) حتى قوله: «والحرام»، وهذه الزيادة ذكرها النووي في الأذكار (ص:١٠).

(٢) إعانة الطالبين (١/ ٢٢)، ومغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج (١/ ٣١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ١٣٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٢).

(٥) الطبراني في الأوسط (٩/ ١٠٧).

▪ وَقَالَا سَمِعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَاءَ المَوْتُ طَالِبَ العِلْمِ وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الحَالِ مَاتَ وَهُوَ شَهِيدٌ»(١)[١].

---

[١] بل إن بعض العُلَماء فَضَّل طلب العِلم على الجهاد، وسَبَقَ لنا التفصيل في هذا، وقلنا: قد نقول لشخص: طلبُ العِلم في حَقِّك أفضلُ، ولِآخَرَ: الجهادُ في حَقِّكَ أَفْضَلُ.

فَإِنْ قِيلَ: حديث النَّبِي ﷺ: «لَنْ يَشْبَعَ مُؤْمِنٌ مِنَ الخَيْرِ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الجَنَّةَ»(٢)، ما مناسبته لبابِ العلم؟

قلنا: مناسبته أن طالب العِلم لا يشبع أبدًا، فهناك مَنْهُومَانِ لا يَشبعان: طالبُ الدُّنيا، وطالب العِلم.

فإن قال قائلٌ: قد وَرَدَ عن الفضيل بْن عياض أنه قيل له: أَلَا تَحَدِّثُنَا تُؤْجَرُ قَالَ: «عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أُؤْجَرُ؟ عَلَى شَيْءٍ تَتَفَكَّهُونَ بِهِ فِي المَجَالِسِ»(٣). فكأنه رفض أَنْ يُحَدِّثَهم، لأنهم مُقَصِّرون في العَمَل، أو ما إلى ذلك.

هل يقال: إِنَّ المُعَلِّم يَنظر في حال المتعلم: إِنْ كانَ مجتهدًا في العَمل بالعِلم فيبذُلُه له، أم يقال: إنه يُعطيه العِلم، ولَعَلَّه إِنْ كَانَ حالُه سيئًا أَنْ يَصْلُحَ مآلُه مِن بَرَكة العِلم؟

فالجَواب: أَنَّ هذا إِنْ صَحَّ، فالمُراد أنه يريد أَنْ يؤدب الطلاب، وهذا مِثْلُ التعزير، يَعْني حِرمانه مِن أَنْ يُحَدِّثَهُم تعزيرًا لهم.

---

(١) الفقيه والمتفقه (١/ ٥٦)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ١٠٦).

(٢) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم (٢٦٨٦).

(٣) انظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٣٣٨)، وتاريخ مدينة دمشق (٤٨/ ٤٢٨).

▪ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْ أَعْلَمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فِي أَمْرٍ وَنَهْيٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ».

▪ وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «مُذَاكَرَةُ العِلْمِ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ قِيَامِ لَيْلَةٍ».

▪ وَعَنِ الحَسَنِ البَصْرِيِّ قَالَ: «لَأَنْ أَتَعَلَّمَ بَابًا مِنَ العِلْمِ فَأُعَلِّمَهُ مُسْلِمًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَكُونَ لِيَ الدُّنْيَا كُلُّهَا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى».

▪ وَعَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ: «دِرَاسَةُ العِلْمِ صَلَاةٌ».

▪ وَعَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ: «لَيْسَ شَيْءٌ بَعْدَ الفَرَائِضِ أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ العِلْمِ»[1].

▪ وَعَنْ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَقِيلَ لَهُ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ: «أَجْلِسُ بِاللَّيْلِ أَنْسَخُ، أَوْ أُصَلِّي تَطَوُّعًا»، قَالَ: «فَنُسَخُكَ تَعْلَمُ بِهَا أَمْرَ دِينِكَ فَهُوَ أَحَبُّ».

▪ وَعَنْ مَكْحُولٍ: «مَا عُبِدَ اللهُ بِأَفْضَلَ مِنَ الفِقْهِ»[2].

▪ وَعَنِ الزُّهْرِيِّ: «مَا عُبِدَ اللهُ بِمِثْلِ الفِقْهِ»[3].

▪ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ قَالَ: «لَيْسَتْ عِبَادَةٌ بِالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَلَكِنْ بِالْفِقْهِ فِي دِينِهِ».

يَعْنِي لَيْسَ أَعْظَمُهَا وَأَفْضَلُهَا الصَّوْمَ، بَلِ الفِقْهَ.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٦٣) عن سفيان.

(٢) أخرجه أبو محمد البغدادي الخلدي في الفوائد والزهد والرقائق والمراثي مرفوعًا (ص:١٧)، وذكره ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ٤١) من كلام الزهري.

(٣) أخرجه وكيع في الزهد (ص:٤٧٩).

▪ وَعَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي فَرْوَةَ: «أَقْرَبُ النَّاسِ مِنْ دَرَجَةِ النُّبُوَّةِ أَهْلُ العِلْمِ، وَأَهْلُ الجِهَادِ، فَالْعُلَمَاءُ دَلُّوا النَّاسَ عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأَهْلُ الجِهَادِ جَاهَدُوا عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ»(١).

▪ وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ: «أَرْفَعُ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مَنْزِلَةً مَنْ كَانَ بَيْنَ اللهِ وَعِبَادِهِ، وَهُمُ الرُّسُلُ وَالْعُلَمَاءُ»(٢).

▪ وَعَنْ سَهْلٍ التُّسْتَرِيِّ: «مَنْ أَرَادَ النَّظَرَ إِلَى مَجَالِسِ الأَنْبِيَاءِ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَجَالِسِ العُلَمَاءِ فَاعْرِفُوا لَهُمْ ذَلِكَ»(٣).

▪ فَهَذِهِ أَحْرُفٌ مِنْ أَطْرَافِ مَا جَاءَ فِي تَرْجِيحِ الِاشْتِغَالِ بِالْعِلْمِ عَلَى العِبَادَةِ.

وَجَاءَ عَنْ جَمَاعَاتٍ مِنَ السَّلَفِ مِمَّنْ لَمْ أَذْكُرْهُ نَحْوُ مَا ذَكَرْتُهُ.

▪ وَالْحَاصِلُ أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الِاشْتِغَالَ بِالْعِلْمِ أَفْضَلُ مِنَ الِاشْتِغَالِ بِنَوَافِلِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ نَوَافِلِ عِبَادَاتِ البَدَنِ.

وَمِنْ دَلَائِلِهِ سِوَى مَا سَبَقَ أَنَّ نَفْعَ العِلْمِ يَعُمُّ صَاحِبَهُ وَالْمُسْلِمِينَ، وَالنَّوَافِلُ الْمَذْكُورَةُ مُخْتَصَّةٌ بِهِ، وَلِأَنَّ العِلْمَ مُصَحِّحٌ، فَغَيْرُهُ مِنَ العِبَادَاتِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، وَلَا يَنْعَكِسُ [١].

---

[١] العِلم كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُصَحِّح، وهو أيضًا مُبَيِّن، فما الذي يُعلمك أَنَّ هذا عبادة، وهذا غير عبادة، وأن هذه العبادة تُفعل على هذا الوجه، دون الوجه الآخَر، وما أَشْبَهَ ذلك إلا العِلم.

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع (٤٢٠٢) للديلمي من حديث ابن عباس مرفوعًا.

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٤٢٥).

(٣) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٢٧٣).

وَلِأَنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَلَا يُوصَفُ المُتَعَبِّدُونَ بِذَلِكَ، وَلِأَنَّ العَابِدَ تَابِعٌ لِلْعَالِمِ مُقْتَدٍ بِهِ، مُقَلِّدٌ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ وَغَيْرِهَا، وَاجِبٌ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ[١]، وَلَا يَنْعَكِسُ. وَلِأَنَّ العِلْمَ تَبْقَى فَائِدَتُهُ وَأَثَرُهُ بَعْدَ صَاحِبِهِ، وَالنَّوَافِلُ تَنْقَطِعُ بِمَوْتِ صَاحِبِهَا، وَلِأَنَّ العِلْمَ صِفَةٌ للهِ تَعَالَى[٢]. وَلِأَنَّ العِلْمَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، أَعْنِي العِلْمَ الذي كَلَامُنَا، فِيهِ فَكَانَ أَفْضَلَ مِنَ النَّافِلَةِ[٣].

وَقَدْ قَالَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الغِيَاثِيِّ فَرْضُ الكِفَايَةِ أَفْضَلُ مِنْ فَرْضِ العَيْنِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ فَاعِلَهُ يَسُدُّ مَسَدَّ الأُمَّةِ، وَيُسْقِطُ الحَرَجَ عَنِ الأُمَّةِ، وَفَرْضُ العَيْنِ قَاصِرٌ عَلَيْهِ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ[٤].

---

[١] قوْله: «**وَاجِبٌ عَلَيْهِ طَاعَتُهُ**» لَيْسَ هذا على الإطلاق، وإنَّما إذا استفتى الإنسانُ عالمًا ملتزمًا بقوله، معتقدًا أنَّ ما يقوله هو الشرع؛ فحينئذ يجب علَيْه أَنْ يطيعه، ولا يَحِلُّ له بعد ذلك أَنْ يستفتي غيره.

وأمَّا مَن استفتى عالمًا، أو سمعه يَقول شيئًا، وليس ملتزمًا لما أفتى به، ولا لِمَا سَمِعَه منه، فإنه لا تجب علَيْه طاعته.

[٢] تعليله بقوله: «**لِأَنَّ العِلْمَ صِفَةٌ للهِ**» هذا فيه نَظَرٌ؛ إذ لَيْسَ كُلُّ صِفة لله تكون محمودةً للخَلْقِ، فمِن صفات الله تعَالى (الجبروت والعَظَمة والكبرياء) وما أشبهَ ذلك، وهذا لا يَجُوز أَنْ يتصف به الإِنسَان.

[٣] والعِلم الذي كلامُه فيه هو عِلم الشَّريعة.

[٤] والصواب أنَّ فَرْض العَين أفضلُ مِن فَرْضِ الكفاية؛ لأن فرضَ العَيْن مطلوبٌ مِن كل واحد، وكونُه يُطْلَب مِن كل واحدٍ دليلٌ على محبة الله له، وأنَّ البَشَر لَا بُدَّ لهم منه.

أمَّا فرضُ الكفاية، فالمطلوب فِعْلُه فقط؛ بِقَطْعِ النظر عن الفاعل، فالأذان - مثلًا- فَرْضُ كِفَايَة؛ لَيْسَ مطلوبًا مِن كل أحد أَنْ يُؤَذِّنَ، إنَّما المقصود أَنْ يَحْصُل الأذانُ فقط، أمَّا فرضُ العَيْن فهو مطلوب مِن كل واحد، فهو أفضلُ بلا شَكّ.

فَصْلٌ فِيمَا أَنْشَدُوهُ فِي فَضْلِ طَلَبِ العِلْمِ

هذا وَاسِعٌ جِدًّا، وَلَكِنْ مِنْ عُيُونِهِ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ ظَالِمِ بْنِ عَمْرٍو التَّابِعِيِّ[١] رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]:

العِلْمُ زَيْنٌ وَتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِهِ ... فَاطْلُبْ -هُدِيتَ- فُنونَ العِلْمِ والأَدَبَا
لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَهُ أَصْلٌ بِلَا أَدَبٍ ... حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا زَانَهُ حَدِبَا
كَمْ مِنْ كَرِيمٍ أَخِي عِيٍّ وَطَمْطَمَةٍ ... فَدْمٍ لَدَى القَوْمِ مَعْرُوفٍ إِذَا انْتَسَبَا
فِي بَيْتَ مَكْرُمَةٍ آبَاؤُهُ نُجُبٌ ... كَانُوا الرُّؤوسَ فَأَمْسَى بَعْدَهُمْ ذَنَبَا
وَخَامِلٍ مُقْرِفِ الآبَاءِ ذِي أَدَبٍ ... نَالَ المَعَالِيَ بِالآدَابِ وَالرُّتَبَا
أَمْسَى عَزِيزًا عَظِيمَ الشَّأْنِ مُشْتَهِرًا ... فِي خَدِّهِ صَعَرٌ قَدْ ظَلَّ مُحْتَجِبًا
العِلْمُ كَنْزٌ وَذُخْرٌ لَا نَفَادَ لَهُ ... نِعْمَ القَرِينِ إِذَا مَا صَاحِبٌ صَحِبَا
قَدْ يَجْمَعُ المَرْءُ مَالًا ثُمَّ يُحْرَمُهُ ... عَمَّا قَلِيلٍ فَيَلْقَى الذُّلَّ وَالحَرَبَا
وَجَامِعُ العِلْمِ مَغْبُوطٌ بِهِ أَبَدًا ... وَلَا يُحَاذِرُ مِنْهُ الفَوْتَ وَالسَّلَبَا
يَا جَامِعَ العِلْمِ نِعْمَ الذُّخْرِ تَجْمَعُهُ ... لَا تَعْدِلَنَّ بِهِ دُرًّا وَلَا ذَهَبَا

---

(١) هو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان، وقيل: ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان، هو أوّل مَن أسس العربية وفتح بابها، وأنهج سبيلها ووضع قياسها. ترجمته في تهذيب الكمال (٣٣/ ٣٧).

(٢) القصيدة في ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص: ٣٨٣)، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

غيره:

تَعَلَّمْ فَلَيْسَ المَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا ... وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلُ
وَإِنَّ كَبِيرَ القَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ ... صَغِيرٌ إِذَا التَفَّتْ عَلَيْهِ المَحَافِلُ

ولآخَر:

عَلِّمِ العِلْمَ مَنْ أَتَاكَ لِعِلْمٍ ... وَاغْتَنِمْ مَا حَيِيتَ مِنْهُ الدُّعَاءَ
وَلْيَكُنْ عِنْدَكَ الغَنِيُّ إِذَا مَا ... طَلَبَ العِلْمَ وَالْفَقِيرُ سَوَاءَ[1]

ولآخَر:

مَا الفَخْرُ إِلَّا لِأَهْلِ العِلْمِ إِنَّهُمُ ... عَلَى الهُدَى لِمَنِ اسْتَهْدَى أَدِلَّاءُ(1)
وَقَدْرُ كُلِّ امْرِئٍ مَا كَانَ يُحْسِنُهُ ... وَالجَاهِلُونَ لِأَهْلِ العِلْمِ أَعْدَاءُ

ولآخَر:

صَدْرُ المَجَالِسِ حَيْثُ حَلَّ لَبِيبُهَا ... فَكُنِ اللَّبِيبَ وَأَنْتَ صَدْرُ المَجْلِسِ

ولآخَر:

عَابَ التَّفَقُّهَ قَوْمٌ لَا عُقُولَ لَهُمْ ... وَمَا عَلَيْهِ إِذَا عَابُوهُ مِنْ ضَرَرِ
مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى وَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... أَلَّا يَرَى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرِ

---

[١] صَحيح، ومِن ذلك أنه إذا أراد أَنْ يتعلم منك، كما لَوْ جاء -يستفتي أو يتعلم- تجده يَقول: أحسنَ اللهُ إليك، ما حُكم كذا وكذا؛ غَفَرَ اللهُ لك، ما حُكم كذا وكذا؛ هذا دعاء.

---

(١) أدلاء: جمع دليل.

فَصْلٌ فِي ذَمِّ مَنْ أَرَادَ بِفِعْلِهِ غَيْرَ اللهِ تَعَالَى

اعْلَمْ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الفَضْلِ فِي طَلَبِ العِلْمِ[1]، إِنَّمَا هُوَ فِي مَنْ طَلَبَهُ مُرِيدًا بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعَالَى لَا لِغَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَنْ أَرَادَهُ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ، كَمَالٍ، أَوْ رِيَاسَةٍ، أَوْ مَنْصِبٍ، أَوْ وَجَاهَةٍ، أَوْ شُهْرَةٍ، أَوِ اسْتِمَالَةِ النَّاسِ إِلَيْهِ، أَوْ قَهْرِ المُنَاظِرِينَ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهُوَ مَذْمُومٌ.

■ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠][1].

وَقَالَ تَعَالَى:﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨]، الآية[2].

---

[١] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، وهذه الزيادة أَنْ يُؤتِيَه الله تعالى خير الدُّنيا والآخرة ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾، ما نُعطيه مَا أراد، نؤتيه منها، ولا نُعطيه ما أراد، ونَحرمه مِن الآخِرَة ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

ثم إن قوْله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ هذا مُقيَّد، لَيْسَ على إطلاقه، مُقيَّد بقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:١٨].

[٢] على أن قوْله: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ قد يقال: لا حاجَةَ إلى تقييده؛ لأن قوْله: ﴿عَجَّلْنَا

---

(١) كلمة (العلم) لَيْسَتْ في المطبوعة، والسياق يقتضيها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:١٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

وَالْآيَاتُ فِيهِ كَثِيرَةٌ

▪ وَرُوِّينَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ جَرِئٌ، فَقَدْ قِيلَ[1]، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، حَتَّى القِيَ فِي النَّارِ»(١).

«وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ القُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى القِيَ فِي النَّارِ».

▪ وَرُوِّينَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضًا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ

لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾ يَدخل في ضِمن ﴿مِنْهَا﴾؛ لأن (مِن) هذه للتبعيض؛ فلا حاجة إلى أن نقول: إن هناك تقييدًا وإطلاقًا.

[١] قوْله: «فَقَدْ قِيلَ» يَعْني فقد أخذتَ جزَاءَك؛ لأنه إنَّما قاتل ليقال: يقولون: فلانٌ جريء، شُجاع، بَطل، وقد قِيل، يَعْني: فَتَمَّ جزاؤك، لَيْسَ لك عندنا شيْء.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، رقم (١٩٠٥).

الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَعْنِي رِيحَهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ[١][(١)].

وَرُوِّينَا عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الآخِرَةِ يُرِيدُ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يُرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ»[(٢)].

رُوِيَ بِفَتْحِ اليَاءِ مَعَ فَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، وَرُوِيَ بِضَمِّ اليَاءِ مَعَ كَسْرِ الرَّاءِ، وَهِيَ ثَلَاثُ لُغَاتٍ مَشْهُورَةٍ، وَمَعْنَاهُ لَمْ يَجِدْ رِيحَهَا.

وَعَنْ أَنَسٍ وَحُذَيْفَةَ قَالَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيُكَاثِرَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ».

- وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ رِوَايَةِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَقَالَ فِيهِ: «أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»[(٣)].

- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ»[(٤)].

---

[١] قولُه: «مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللهِ» هذا قَيْدٌ، فلو تَعَلَّم عِلْمًا مما لا يُبتَغى به وجهُ الله؛ -يَعْني: مِن أمور الدُّنيا-؛ لِأَجْلِ أَنْ يُصِيبَ عَرَضًا مِن الدُّنيا، فلا يَلحَقُه هذا الوعيد، كإنسانٍ تعلَّم الهندسة ليكون مهندسًا، أو تعلَّم البِناء ليكون بَنَّاءً، أو ما أَشْبَهَ ذلك؛ فَإِنَّ هَذَا لا يَضُرُّهُ شيئًا.

---

(١) أخرجه أبوداود: كتاب العلم، باب في طلب العلم لغير الله -تعالى-، رقم (٣٦٦٤).
(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، (١/ ١٨).
(٣) أخرجه الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدنيا، رقم (٢٦٥٤)، وابن ماجه: في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم (٢٥٣)
(٤) أخرجه الدارمي: في المقدمة، باب العمل بالعلم وحسن النيّة فيه، رقم (٢٦٢).

■ وَعَنْهُ ﷺ: «شِرَارُ النَّاسِ شِرَارُ العُلَمَاءِ»(١).

■ وَرُوِّينَا فِي مُسْنَدِ الدَّارِمِيِّ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ- قَالَ: «يَا حَمَلَةَ العِلْمِ(٢) اعْمَلُوا بِهِ، فَإِنَّمَا العَالِمُ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ، وَوَافَقَ عِلْمَهُ عَمَلُهُ، وَسَيَكُونُ أَقْوَامٌ يَحْمِلُونَ العِلْمَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ، وَيُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ، يَجْلِسُونَ حِلَقًا يُبَاهِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ[١] أَنْ يَجْلِسَ إِلَى غَيْرِهِ، وَيَدَعَهُ، أُولَئِكَ لَا تَصْعَدُ أَعْمَالُهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ تِلْكَ إِلَى اللهِ تَعَالَى»(٣).

■ وَعَنْ سُفْيَانَ: «مَا ازْدَادَ عَبْدٌ عِلْمًا، فَازْدَادَ فِي الدُّنْيَا رَغْبَةً، إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللهِ بُعْدًا»(٤).

■ وَعَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ: «مَنْ طَلَبَ الحَدِيثَ لِغَيْرِ اللهِ، مَكَرَ بِهِ»(٥).

---

[١] قوْله: «حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْضَبُ عَلَى جَلِيسِهِ»، هذا إِذَا كَانَ المقصود بذلك المُماراة، وأمَّا إِذَا كَانَ يغضب علَيْه؛ لأنه يذهب إلى مَن يُخْشَى علَيْه منه أَنْ يُضِلَّه في دِينه، فلا بَأْسَ أَنْ يغضب.

يَعْني: لَوْ أن طالبًا مِن الطلبة ذهب إلى آخَر، وأنت تعرف أنه إذا ذهب إلى هذا الطَّالب فسوف يتأثر بعقيدته، أو منهجه، فلا حَرَج أن تغضب علَيْه، وتُحَذِّرَه منه؛ لأن المُعَلِّمَ أيضًا لا يَنْبغِي أَنْ يَكُونَ مُعَلِّمًا فقط، بل يكون مُعَلِّمًا ومُوَجِّهًا ومُرَبِّيًا.

---

(١) أخرجه الدارمي: في المقدمة، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، رقم (٣٧٠).
(٢) كلمة (العلم) سقطت من المطبوعة، وأثبتناها من مسند الدارمي.
(٣) أخرجه الدارمي (١/ ٣٨٢، رقم ٣٩٤).
(٤) أخرجه الدارمي (١/ ٣٨٥، رقم ٤٠٠).
(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٥١)، وابن عَبْدِ البَرِّ في جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٦٣).

وَالْآثَارُ بِهِ كَثِيرَةٌ[١].

[١] هذه الأَحادِيث والآثار كلها ضعيفة؛ لكن النَوَوِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتهاون في فضائل الأعمال، ومعلوم أنَّ أَصْلَ العِلم ثابِتٌ فضلُه، والحث علَيْه.

فَصْلٌ فِي: النَّهْيِ الأَكِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِمَنْ يُؤْذِي أَوْ يَنْتَقِصُ الفُقَهَاءَ وَالْمُتَفَقِّهِينَ، وَالْحَثُّ عَلَى إِكْرَامِهِمْ وَتَعْظِيمِ حُرُمَاتِهِمْ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨][1].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨][2].

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»[1].

---

[١] استهلال النَوَوِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ بالآيات يدُلّ على أَنَّ العُلَماء يُعَظَّمُون بِحَسَبِ ما عندهم مِن شعائر الله عَزَّوَجَلَّ وحُرُماته، وأنهم أحقُّ النَّاس بقوله تعَالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، والآية الثَّانية: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

[٢] وأما قوْله تعَالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ﴾ فواضح أنَّ أَذِيَّةَ العُلَماء مُحَرَّمَة؛ بل أَذِيَّة المؤمنين -وإن لم يكونوا علماء- مُحَرَّمة، لقوله تعَالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (٦٥٠٢).

▪ وَرَوَى الخَطِيبُ البَغْدَادِيُّ عَنِ الشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَا: «إِنْ لَمْ تَكُنِ الفُقَهَاءُ أَوْلِيَاءَ اللهِ، فَلَيْسَ للهِ وَلِيٌّ»(١).

▪ وَفِي كَلَامِ الشَّافِعِيِّ الفُقَهَاءُ العَامِلُونَ[١].

▪ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ آذَى فَقِيهًا فَقَدْ آذَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَنْ آذَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَدْ آذَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ»[٢].

إذا قال قائلٌ: كَيْفَ تتأتى أَذِيَّة الله مع أنه عَزَّوَجَلَّ يقول: «يا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي»(٢)؟

فالجَواب: لا مُلازمة بين الأذية والضَّرر، فقد يتأذَّى المتأذِّي مِن شيْء، ولا يَتَضَرَّر به، ومِن ذلك تأذِّي الإنسَان برائحة البصل والثُّوم والكُرَّاث بِدُونِ أَنْ يتضرر منها، فالله تعَالى يتأذَّى، وَلَكِنَّهُ لا يتضرر، وقد جاء ذلك في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب:٥٧].

وجاء في الحَديث القُدسي: «يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ»(٣).

[١] على كلّ حالٍ، فالقرآن صَرَّح، وبَيَّن مَن هُم أَوْلياءُ الله وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]. وكونُهم مؤمنين مُتَّقِين لَا بُدَّ أَنْ يَسْبِقَ ذلك العِلمُ، إذ لا يُمْكن أَنْ يَتَّقِيَ الإنسَان ما لا يَعْلَمُه.

[٢] وأما أثـر ابن عبَّاس: «**مَنْ آذَى فَقِيهًا فَقَدْ آذَى رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَمَنْ آذَى**

---

(١) الفقيه والمتفقه (١/ ١٥٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:١٥]، رقم (٤٧٩١)، ومسلم: كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر، رقم (٢٢٤٦).

■ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذِمَّتِهِ»(١).

■ وَفِي رِوَايَةٍ: «فَلَا تُخْفِرُوا اللهَ فِي ذِمَّتِهِ»(٢)[١].

وَقَالَ الإِمَامُ الحَافِظُ أَبُو القَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعْلَمْ يَا أَخِي وَفَّقَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ لِمَرْضَاتِهِ، وَجَعَلَنَا مِمَّنْ يَخْشَاهُ، وَيَتَّقِيهِ حَقَّ تُقَاتِهِ أَنَّ لُحُومَ العُلَمَاءِ مَسْمُومَةٌ، وَعَادَةُ اللهِ فِي هَتْكِ أَسْتَارِ مُنْتَقِصِيهِمْ مَعْلُومَةٌ، وَأَنَّ مَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ فِي العُلَمَاءِ بِالثَّلْبِ، بَلَاهُ اللهُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِمَوْتِ القَلْبِ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَدْ آذَى اللهَ عَزَّوَجَلَّ»(٣).

[١] إذا كان المصلي للصبح في ذِمَّة الله وعهده، وأنه لا يَجُوز لِلإِنْسَان أَنْ يتطاول علَيْه؛ فما بالُك بِمَن هو أتقى مِن ذلك وأَعْظَمُ!

والإخفار معْنَاهُ: الاعتداء على مَنْ كان في ذمة الله.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة، رقم (٦٥٧).

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، باب فضل استقبال القبلة يستقبل بأطراف رجليه، رقم (٣٩١).

(٣) أخرجه ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك (ص:٩٠).

بَابُ أَقْسَامِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ

هِيَ ثَلَاثَةٌ: الأَوَّلُ: فَرْضُ العَيْنِ، وَهُوَ تَعَلُّمُ المُكَلَّفِ مَا لَا يَتَأَدَّى الوَاجِبُ الَّذِي تَعَيَّنَ عَلَيْهِ فِعْلُهُ إِلَّا بِهِ، كَكَيْفِيَّةِ الوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ وَنَحْوِهِمَا، وَعَلَيْهِ حَمَلَ جَمَاعَاتٌ الحَدِيثَ المَرْوِيَّ فِي مُسْنَدِ أَبِي يَعْلَى المَوْصِلِيِّ عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»[1].

وَهَذَا الحَدِيثُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَابِتًا، فَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ، وَحَمَلَهُ آخَرُونَ عَلَى فَرْضِ الكِفَايَةِ.

وَأَمَّا أَصْلُ وَاجِبِ الإِسْلَامِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَقَائِدِ، فَيَكْفِي فِيهِ التَّصْدِيقُ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَاعْتِقَادُهُ اعْتِقَادًا جَازِمًا سَلِيمًا مِنْ كُلِّ شَكٍّ، وَلَا يَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ حَصَلَ لَهُ هَذَا تَعَلُّمُ أَدِلَّةِ المُتَكَلِّمِينَ.

هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ الَّذِي أَطْبَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْفُقَهَاءُ، وَالْمُحَقِّقُونَ مِنَ المُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يُطَالِبْ أَحَدًا بِشَيْءٍ سِوَى مَا ذَكَرْنَاهُ.

وَكَذَلِكَ الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ، وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ الصَّدْرِ الأَوَّلِ، بَلِ الصَّوَابُ لِلْعَوَامِّ، وَجَمَاهِيرِ المُتَفَقِّهِينَ وَالْفُقَهَاءِ الكَفُّ عَنِ الخَوْضِ فِي دَقَائِقِ الكَلَامِ مَخَافَةَ مِنَ اخْتِلَالٍ يَتَطَرَّقُ إِلَى عَقَائِدِهِمْ يَصْعُبُ عَلَيْهِمْ إِخْرَاجُهُ،

(١) أخرجه ابن ماجه: في المقدمة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (٢٢٤).

بَلِ الصَّوَابُ لَهُمُ الاِقْتِصَارُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الاِكْتِفَاءِ بِالتَّصْدِيقِ الجَازِمِ.

وَقَدْ نَصَّ عَلَى هَذِهِ الجُمْلَةِ جَمَاعَاتٌ مِنْ حُذَّاقِ أَصْحَابِنَا وَغَيْرِهِمْ.

وَقَدْ بَالَغَ إِمَامُنَا الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- فِي تَحْرِيمِ الاِشْتِغَالِ بِعِلْمِ الكَلَامِ أَشَدَّ مُبَالَغَةٍ، وَأَطْنَبَ فِي تَحْرِيمِهِ، وَتَغْلِيظِ العُقُوبَةِ لِمُتَعَاطِيهِ، وَتَقْبِيحِ فِعْلِهِ، وَتَعْظِيمِ الإِثْمِ فِيهِ، فَقَالَ لَأَنْ يَلْقَى اللهَ العَبْدُ بِكُلِّ ذَنْبٍ مَا خَلَا الشِّرْكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الكَلَامِ[1]. وَأَلْفَاظُهُ بِهَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ مَشْهُورَةٌ[1].

---

[١] ونقل عنه شيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الفتوى الحَمَوِيَّة أنه قال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكِتَاب والسُّنَّة، وأقبل على الكلام»[٢].

قال شيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويعلم العليم أنهم من وجه مستحِقُّون ما قاله الشَّافِعِيّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ»[٣].

وقال أيضًا: «ومِن وجهٍ آخَر إذا نظرتَ إليهم بعَيْنِ القَدَرِ -والحيرة مُستولية عليهم، والشيطان مستحوذٌ عليهم- رحمتَهم، وتَرَفَّقْتَ بهم؛ أُوتُوا ذَكاء، وما أُوتوا ذَكاءً، وأُعطوا فُهُومًا، وما أُعطوا عُلوما وأُعطوا سمعًا وأبصارًا وأفئدةً»[٤].

وعِلم الكلام سُمِّي بذلك لكثرة كلَامهم، واستِدْلَالَاتِهم مع أَنَّ الأمر سهل، لكـن تَجِدُهـم يأتـون على مسْألة مِن العقائـد يكتبـون عليها صفحاتٍ بـدُونِ طـائلٍ،

---

(١) انظر جامع بيان العلم وفضله، لابن عَبْدِ البَرِّ (٢/ ٩٣٩).
(٢) الفتوى الحموية (ص:٥٥٥).
(٣) الفتوى الحموية (ص:٥٥٥).
(٤) مجموع الفتاوى (٥/ ١١٩).

وَقَدْ صَنَّفَ الغَزَالِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ كِتَابَهُ المَشْهُورَ الَّذِي سَمَّاهُ الجَامُ العَوَامِّ عَنْ عِلْمِ الكَلَامِ، وَذَكَرَ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَوَامٌّ فِي هَذَا الفَنِّ، مِنَ الفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ، إِلَّا الشَّاذَّ النَّادِرَ الَّذِي لَا تَكَادُ الأَعْصَارُ تَسْمَحُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

▪ وَلَوْ تَشَكَّكَ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ- فِي شَيْءٍ مِنْ أُصُولِ العَقَائِدِ مِمَّا لَا بُدَّ مِنِ اعْتِقَادِهِ، وَلَمْ يَزُلْ شَكُّهُ إِلَّا بِتَعْلِيمِ دَلِيلٍ مِنْ أَدِلَّةِ المُتَكَلِّمِينَ، وَجَبَ تَعَلُّمُ ذَلِكَ لِإِزَالَةِ الشَّكِّ، وَتَحْصِيلِ ذَلِكَ الأَصْلِ[1].

وَبِدُونِ فائدة، مقدمات ومستلزَمات لَوْ خلا الإنسَان منها لكان أكثَر بركة وأحسن، ولهذا فإن كثيرًا مِن علماء الكلام الذين بلغوا غايته نَدِم، حتى كان بعضهم يَقول: «ها أنا أموتُ على عقِيدَةِ عجَائِز نيْسَابُور»(١).

وقال بَعْضُهُم: «أكثر النَّاس شَكًّا عند الموت هُم أهل الكلام»(٢). نَسْأَلُ اللهَ العافية.

[١] فيكون هذا مِن باب ما لا يَتِمُّ الواجب إلا به، يَعْني لَوْ فَرَضْنَا أن إنسانًا يَبني عقائده على طريق المتكلمين، ولا يَصِلُ إلى اليقين إلا بطريق المتكلمين، قُلْنا: لا بأس، لكن مَن سَلِمَ منها، فهو أَسْلَمُ، مَنْ سَلِم، وبنى عقيدتَه على ما جاء في الكِتَاب والسُّنة، وما جاء عن السَّلَف، فلا شكّ أنه أسلمُ، وأبعدُ عن الشَّرِّ.

(١) منسوب لأبي المعالي، في بيان تلبيس الجَهْمِيَّة (١/ ١٢٢)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٧٤).
(٢) منسوب لأبي حامد الغزالي، في مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨).

(فَـرْعٌ)

اخْتَلَفُوا فِي آيَاتِ الصِّفَاتِ، وَأَخْبَارِهَا: هَلْ يُخَاضُ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ، أَمْ لَا؟ فَقَالَ قَائِلُونَ: تُتَأَوَّلُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهَا، وَهَذَا أَشْهَرُ المَذْهَبَيْنِ لِلْمُتَكَلِّمِينَ.

وَقَالَ آخَرُونَ لَا تُتَأَوَّلُ، بَلْ يُمْسَكُ عَنِ الكَلَامِ فِي مَعْنَاهَا، وَيُوكَلُ عِلْمُهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى وَيُعْتَقَدُ مَعَ ذَلِكَ تَنْزِيهُ اللهِ تَعَالَى وَانْتِفَاءُ صِفَاتِ الحَادِثِ عَنْهُ، فَيُقَالُ مَثَلًا: نُؤْمِنُ بِأَنَّ الرَّحْمَنَ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى، وَلَا نَعْلَمُ حَقِيقَةَ مَعْنَى ذَلِكَ، وَالمُرَادَ بِهِ مَعَ أَنَّا نَعْتَقِدُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الحُلُولِ، وَسِمَاتِ الحُدُوثِ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ السَّلَفِ، أَوْ جَمَاهِيرِهِمْ، وَهِيَ أَسْلَمُ، إِذْ لَا يُطَالَبُ الإِنْسَانُ بِالخَوْضِ فِي ذَلِكَ، فَإِذَا اعْتَقَدَ التَّنْزِيهَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى الخَوْضِ فِي ذَلِكَ، وَالمُخَاطَرَةِ فِيمَا لَا ضَرُورَةَ، بَلْ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ، فَإِنْ دَعَتِ الحَاجَةُ إِلَى التَّأْوِيلِ لِرَدِّ مُبْتَدِعٍ وَنَحْوِهِ، تَأَوَّلُوا حِينَئِذٍ، وَعَلَى هَذَا يُحْمَلُ مَا جَاءَ عَنِ العُلَمَاءِ فِي هَذَا، وَاللهُ أَعْلَمُ[١].

---

[١] هذا مبحث مُهِمٌّ جِدًّا، وظاهِرُ كلام الشَّيخ النَوَوِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لَيْسَ هنا إلا طريقتان: طريقةُ التأويل، وطريقةُ التَّفْوِيضِ، وألَّا نَعلم ما هو المعنى منها، بل نعتقد أَنَّ الله مُنزَّه، ولكننا لا نتكلم في معانيها.

وهذا لا شك أنه قاصِرٌ جِدًّا؛ لأن هناك طريقًا أخرى ثالثة هي الحقُّ، وهي: أن نؤمن بمعْنَاهُا اللائقِ بالله عَزَّوَجَلَّ، فلا نقول: نُمسك، بل نؤمن بالمعنى.

فمثلًا هذا المثال الذي ذَكَرَهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، أهل التأويل،

.....

وأهل الكلام يقولـون: استوى بمَعْنى: استولـى، ومَلَكَ، وقَهَـرَ، وغلب، وما أَشْبَهَ ذلك.

والآخرون يقولون: لا نعلم حقيقةَ معْنَاهُ، لَوْ قال: حَقِيقَة كيفيته، قُلْنا: لا بأس، هذا صَحيح.

لكن حقيقة المعنى أننا لا ندري، بل نُفَوِّضُ الأمر إلى الله، وهذا لا شكَّ أنه لَيْسَ بِأَسْلَمَ، بل هو أخطرُ وأَعْظَمُ، وأبعدُ مِن العَقل، أو أبعدُ مِن المعقول عن قوْل المتكلمين؛ لأن هؤلاء يجعلون كلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله في أشد الأَشْياء حاجة لَيْسَ له معنًى، ولا يَفهم النَّاس معْنَاهُ، وهو عندهم بمنزلة الحروف الهجائية التي لَيْسَ لها معنًى، بل الرَّسول ﷺ يتكلم بالحديث، ولا يَدري ما معْنَاهُ.

ولا شكَّ أَنَّ هذا خطرٌ عظيم، والذي يَقول: أنا أعرف المعنى لكن المُراد باسْتَوَى: استَوْلى؛ خَيْر في العِلم مِن الذي يَقول: أنا لا أدري؛ لأن هذا جاهِلٌ، وذاك عالمٌ لكنه أخطأ في العِلم، وهو خير مِن حيْثُ تقويم النُّصوص ممن يَقول: لَيْسَ لها معنًى؛ لأنه لَيْسَ مِن المعقول أَنْ يأتيَ كلامُ الله ورسولِه في أشرفِ الأَشْياء، وأَشَدِّها حاجةً، ولا يُفهَم منها معنًى؟! هذا لا يُمْكن.

ولذلك نقول: مَن قال: إنَّ طريقة السَّلَف هي تفويضُ المعنى، وأنها أَسْلَمُ، قُلْنا: لَيْسَ كذلك؛ بل هذا لَيْسَ بِأَحْسَنَ، ولا أَعْلَمَ، ولا أَحْكَمَ.

والعِبارَة المشْهُورة عن بعض الأغبياء، كما وصفهم شيْخ الإِسْلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هي أنهم يقولون: طريقة السَّلَف أسلمُ، وطريقة الخَلَف أَعْلَمُ وأحكم.

نعـم، إذا قُلْنا: إنَّ طريقةَ السَّلَفِ هي التفـويضُ في المعنى، فَطَرِيقة الخَلَف أَعْلَمُ

.....

وأَحْكَمُ، ولا شكَّ، حيْثُ يُثبتون للنصوص معانيَ، لكنا نقول: إن طريقةَ السَّلَف هي إثبات المعنى.

وما أكثرَ الكلماتِ التي جاءتْ عنهم في ذلك.

العِبارَة المشْهُورة التي أجمعوا عليها، ولم يُنازِع فيها مُنازِع: «أَمِرُّوها كما جاءت، بلا كيف»، هذه عبارة السَّلَف، ومعلومٌ أنها ألفاظٌ جاءت لِمَعْنًى، فيجب أنْ نُمِرَّها على معْنَاهُا.

ثم إن قولهم: «بِلَا كَيْف» يَدُلُّ على أنهم يُثبتون أصل المعنى؛ إذ نَفْيُ الكيفية عما لَيْسَ بمعلوم، أو عَمَّا لَيْسَ له معنًى لَغْوٌ مِن القَوْل؛ لأنه إذا لم يكن لها معنًى، فلا نحتاجُ أن نقول: بلا كيفية.

فالحاصِلُ: أن هنا ثلاثَة مذاهب:

١- مذهب أهل التأويل الذين حَكَّمُوا عُقولهم فيما يُثبتون لله، وما يَنْفُون عنه.

٢- ومذهب أهل التفويض الجُهَّال الذين لا يعرفون رَبَّهُم، ولا ما وَصَفَ به نفسه.

٣- ومذهب أهل السُّنة أهل الدَّليل الذين يقولون: نحن نؤمن بأن الله تعَالى لم يُنزل كتابًا، وأنَّ رسوله ﷺ لم يَقُلْ قولًا إلا وهو يعلم معْنَاهُ، وأن ذلك مُرادُ الله عَزَّوَجَلَّ، لكن بلا كيفٍ، ولا تمثيل. وهذا هو مذهب السَّلَف حقيقة.

ومَن قال عن التفويض: إنه مذهب السَّلَف، فإنه إمَّا جاهلٌ به، وَإِمَّا كاذب علَيْه، ولكن على ماذا نَحْمِلُ كلام النَوَوِيّ؟ هل نقول: إنه جاهل به، أو كاذب علَيْه؟

.....

الأوَّل اليَـقُ بِمَقَـامِ النوَوِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأمثالِه مِن العُلَـماء المعروفين المشْهُـورين بالنصيحة لله ولكتابه ورسوله، وأئمة المُسْلمين وعامَّتهم، أنهم يجهلون حقيقة مذهب أهل السَّلَف.

فإن قال قائلٌ: بعضُهم يَزيد في العِبارَة المروية عن السَّلَف عَن الإمام أحْمَدَ أنه قال: «أَمِرُّوها بلا كَيْفَ ولا معنًى» هل هذه الزيادة صحيحة؟

هذه العِبارَة رُويت عَن الإمام أحْمَدَ: «نُؤْمِنُ بِهَا، وَنُصَدِّقُ بِهَا، وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى وَلَا نَرُدُّ مِنْهَا شَيْئًا»[1].

لكن قال ابن تَيْمِيَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالْمُنْتَسِبُونَ إِلَى السُّنَّةِ مِن الحَنَابِلَةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ جَعَلُوا لَفْظَ التَّأْوِيلِ يَعُمُّ القِسْمَيْنِ يَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَجِدُونَهُ فِي كَلَامِ الأَئِمَّةِ فِي الْمُتَشَابِهِ، مِثْلَ قَوْلِ أَحْمَد فِي رِوَايَةِ حَنْبَلٍ: وَلَا كَيْفَ، وَلَا مَعْنًى، ظَنُّوا أَنَّ مُرَادَهُ: أَنَّا لَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا، وَكَلَامُ أَحْمَد صَرِيحٌ بِخِلَافِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ إِنَّمَا يُنْكِرُ تَأْوِيلَاتِ الجَهْمِيَّة وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ القُرْآنَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَصَنَّفَ كِتَابَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالجَهْمِيَّة، فِيمَا أَنْكَرَتْهُ مِنْ مُتَشَابِهِ القُرْآنِ، وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَأْوِيلَ القُرْآنِ عَلَى غَيْرِ مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ»[2].

فَإِنْ قِيلَ: المبتدع إذا عُرف واشتُهر بالعِلم هل يُسمَّى عالمًا؟ وهل يمكن أَنْ يُتكلم فيه فيما سِوى بدعته؟

الواقع أننا إن أردنا أن نُقوِّم العُلَماء الذين عندهم بدعة، فلا بُدَّ أن نَذكُر المحاسن

(١) لمعة الاعتقاد (١/ ٩)، وذم التأويل (١/ ٢٢)، ودرء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٦٣).

.....

والمساوئ، هذا هو العَدْلُ، وإنْ أردنا أنْ نُحَذِّرَ مِن بدعته، فلا نَذْكُر محاسنه؛ لأن هذا تناقضٌ مع مُرادنا.

نحن نريد أن نُحَذِّرَ مِن بدعته، فكيف نقول: والله فلان مُبتَدع يَقول: استوى بمَعْنى استولى، لكنه رجلٌ عالم عظيم؟!

الذي يسمع هذا الكلام لن يقبل منا أن نقول: إنه أخطأ في هذا؛ فالمسْألة تحتاج إلى تفصيل.

فيقال: مَن أراد أَنْ يُقَوِّمَ الرَّجل، فَالْوَاجِبُ أَنْ يَذْكُرَ مَحَاسِنَه ومساوئه، ومَن أراد أَنْ يُحَذِّر مِن خطئه، فلا يَذكر المحاسن؛ فَلَيْسَ لها داعٍ.

لكن أنا عقيدتي في مِثل النَوَوِيّ، وابن حَجَرٍ رَحِمَهُمَاٱللَّهُ أنهما لا يُريدان الضلال، ولا الإضلال، وإنَّما لم يُوَفَّقَا للصواب في مسْألة الأسماء والصفات، لكن لهما مِن الخيرات، وقَدَمُ الصِّدق والنُّصح والإخلاص ما لم يَبْلُغْه كثيرٌ مِن العُلَماء.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ إذا أورد أحدُهم شُبهة وقال: مِن المعروف أنَّ مِثل الإمام النوويِّ مُطَّلع جدًّا على آثار السَّلَف وأقوالهم، فكيف يخفى علَيْه مِثل هذا؟

فالجَواب: أهو بَشَرٌ؟ أَمعصومٌ؟! نقول: العُلَماء الآخَرُون نَقَلُوا كلام السَّلَف بأسانيدهم، مِثل السُّنة التي ألف فيها كثير مِن العُلَماء، كاللالكائي وغيره، وبَيَّنوا هذا، وشيْخ الإِسْلام رَحِمَهُٱللَّهُ محَّص هذا تمحيصًا تامًّا، فجزاه الله خيرًا.

(فَـرْعٌ)

لا يَلْزَمُ الإِنْسَانَ تَعَلُّمُ كَيْفِيَّةِ الوُضُوءِ وَالصَّلَاةِ وَشَبَهِهِمَا إِلَّا بَعْدَ وُجُوبِ ذَلِكَ الشَّيْءِ، فَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ لَوْ صَبَرَ إِلَى دُخُولِ الوَقْتِ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَمَامِ تَعَلُّمِهَا مَعَ الفِعْلِ فِي الوَقْتِ، فَهَلْ يَلْزَمُهُ التَّعَلُّمُ قَبْلَ الوَقْتِ؟ تَرَدَّدَ فِيهِ الغَزَالِيُّ، وَالصَّحِيحُ مَا جَزَمَ بِهِ غَيْرُهُ أَنَّهُ يَلْزَمُهُ تَقْدِيمُ التَّعَلُّمِ، كَمَا يَلْزَمُ السَّعْيُ إِلَى الجُمُعَةِ لِمَنْ بَعُدَ مَنْزِلُهُ قَبْلَ الوَقْتِ[١].

---

[١] هاتان مسألتان:

المسألة الأُولَى: إِذَا كَانَ لا يعرف أذكار الصلوات، فَهَلْ يَلزمه أَنْ يتعلم قَبل دخول الوَقْت؟

الظَّاهر أنه يلزمه العِلم، ولا يقال: إنه لم يخاطَب بالصَّلاة حتى الآن لأننا نقول: يجب أَنْ يتهيَّأ للصَّلاة، بِحَيْثُ إذا جاء الوَقْت يكون قد استعد لها.

والمسألة الثَّانية: السَّعي إلى الجُمْعة، في القرآن الكريم أَمَرَ اللهُ تعَالى بالسعي إلى الجُمعة إذا نُودي للصَّلاة.

لكن إِذَا كَانَ الإنسانُ منزلُه بعيدٌ، لا يتمكن مِن الوصول إلى المسجد إلا إذا سَعى قَبْلَ أَنْ يُؤَذَّنَ للصَّلاة؛ فَهَلْ يَلزمه؟

نقول: نعم يَلزمه؛ لأَنَّ اللهَ تعَالى أمر بالسَّعي إلى الجُمْعة بعد النداء لمن منزلُه قريبٌ يسمع النداء ويحضر، أما مَنْ كان بعيدًا، فلا بُدَّ أَنْ يتقدم، ولا سِيَّما إذا قُلْنا بأن وقت الجمعة يدخل مِن حينِ ارتفاع الشمس قِيدَ رُمْحٍ.

ثُمَّ إِذَا كَانَ الوَاجِبُ عَلَى الفَوْرِ، كَانَ تَعَلُّمُ الكَيْفِيَّةِ عَلَى الفَوْرِ، وَإِنْ كَانَ عَلَى التَّرَاخِي كَالْحَجِّ فَعَلَى التَّرَاخِي[١].

ثُمَّ الَّذِي يَجِبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا يَتَوَقَّفُ أَدَاءُ الوَاجِبِ عَلَيْهِ غَالِبًا، دُونَ مَا يَطْرَأُ نَادِرًا، فَإِنْ وَقَعَ، وَجَبَ التَّعَلُّمُ حِينَئِذٍ.

وَفِي تَعَلُّمِ أَدِلَّةِ القِبْلَةِ أَوْجُهٌ[٢]: أَحَدُهَا: فَرْضُ عَيْنٍ، وَالثَّانِي: كِفَايَةٌ، وَأَصَحُّهُمَا فَرْضُ كِفَايَةٍ، إِلَّا أَنْ يُرِيدَ سَفَرًا، فَيَتَعَيَّنُ لِعُمُومِ حَاجَةِ الْمُسَافِرِ إِلَى ذَلِكَ.

---

[١] قوْله: «**وَإِنْ كَانَ عَلَى التَّرَاخِي كَالحَجِّ فَعَلَى التَّرَاخِي**» صَحيح، إِذَا كَانَ الواجب على التراخي، فمتى شئتَ فافْعَلْهُ، فتعَلَّمْ ما يجب له على التراخي.

وأما تمثيلُه بالحج فغير صَحيح، والصواب أَنَّ الحج واجب على الفَوْرِ، وأنَّ مَن تَمَّتْ فيه شروط الوجوب، وَجَبَ علَيْه السعيُ، ولا يَجُوز له التأخير؛ لأن التأخيرَ له آفات؛ قد يَفْقِدُ المال، وقد يُفْقَدُ الأمنُ، وقد يموت الشخص، فمتى تَمَّت شروط وجوبِ الحج، وجب علَيْه السعي فورًا.

[٢] قال: «**أَوْجُهٌ**» وذَكـر وَجْهَيْن فقط: أنها فـرض عين، وأنها فَـرْض كِفَايَة، والصواب أنها فَرْض كِفَايَة، فيجب على أهل البلد أَنْ يعرفوا القبلة، وفرض عيْنٍ على من أراد أَنْ يُصلّي؛ سواءً أراد السفر أو لم يرد.

(فَــرْعٌ)

أَمَّا البَيْعُ وَالنِّكَاحُ وَشَبَهُهُمَا مِمَّا لَا يَجِبُ أَصْلُهُ فَقَالَ إِمَامُ الحَرَمَيْنِ وَالْغَزَالِيُّ وَغَيْرُهُمَا يَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ أَرَادَهُ تَعَلُّمُ كَيْفِيَّتِهِ وَشَرْطِهِ وَقِيلَ لَا يُقَالُ يَتَعَيَّنُ بَلْ يُقَالُ يَحْرُمُ الإِقْدَامُ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ شَرْطِهِ وَهَذِهِ العِبَارَةُ أَصَحُّ: وَعِبَارَتُهُمَا مَحْمُولَةٌ عَلَيْهَا: وَكَذَا يُقَالُ فِي صَلَاةِ النَّافِلَةِ يَحْرُمُ التَّلَبُّسُ بِهَا عَلَى مَنْ لَـمْ يَعْرِفْ كَيْفِيَّتَهَا وَلَا يُقَالُ يجب تعلم كيفيتها[١].

---

[١] **لأَنَّك لَوْ قلت**: يجب تعلُّم كيفيتها، فقد أوجبتَ شيئًا لما لا يجب، ولكن نقول: لا تُصَلِّ حتى تعرف الكيفية.

ومِثله أيضًا البيعُ، فلا نقول: يجب عليك أن تتعلم إذا أردته؛ لأننا حينئذٍ نُوجِبُ شيئًا لما لَيْسَ بواجب، لكن نقول: إذا أردت أن تباشره، فلا تُبَاشِرْه حتى تَعْلَمَ شروطه.

(فَـرْعٌ)

يَلْزَمُهُ مَعْرِفَةُ مَا يَحِلُّ، وَمَا يَحْرُمُ مِنَ المَأْكُولِ وَالمَشْرُوبِ وَالمَلْبُوسِ وَنَحْوِهَا مِمَّا لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ غَالِبًا، وَكَذَلِكَ أَحْكَامُ عِشْرَةِ النِّسَاءِ، إِنْ كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ، وَحُقُوقُ المَمَالِيكِ، إِنْ كَانَ لَهُ مَمْلُوكٌ، وَنَحْوُ ذَلِكَ[١].

---

[١] كل هذا الذي ذَكَرَهُ حقيقة؛ لأن الإنسَان سَيُمَارِسُ هذه الأعمال، فيجب أَنْ يَعرف حُكم الله فيها، حتى يأتِيَها على بَصيرةٍ، فلا بُدَّ أَنْ يعرف ما الذي يَحِلُّ مما لا يَحِلُّ مِن المأكول والمشروب والملبوس أيضًا، لئلا يقع في المحرَّم وهو لا يدري.

وكذلك أحكامُ عِشْرَةِ النِّساء؛ يجب على الزوج أَنْ يعرفها، ويجب على الزوجة كذلك أن تعرفها، حتى يُعامل كل واحدٍ منهما الآخَر بما يجب له.

وكذلك حقوق المماليك، سواءٌ كانوا آدمِيِّين أَمْ غيرَ آدمِيِّين.

(فَـرْعٌ)

قَالَ الشَّافِعِيُّ وَالْأَصْحَابُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: عَلَى الآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ تَعْلِيمُ أَوْلَادِهِمُ الصِّغَارِ مَا سَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ البُلُوغِ، فَيُعَلِّمُهُ الوَلِيُّ الطَّهَارَةَ وَالصَّلَاةَ وَالصَّوْمَ وَنَحْوَهَا، وَيُعَرِّفُهُ تَحْرِيمَ الزِّنَا وَاللِّوَاطِ وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الْمُسْكِرِ وَالْكَذِبِ وَالْغِيبَةِ وَشِبْهِهَا، وَيُعَرِّفُهُ أَنَّ بِالْبُلُوغِ يَدْخُلُ فِي التَّكْلِيفِ وَيُعَرِّفُهُ مَا يَبْلُغُ بِهِ.

وَقِيلَ هَذَا التَّعْلِيمُ مُسْتَحَبٌّ، وَالصَّحِيحُ وُجُوبُهُ، وَهُوَ ظَاهِرُ نَصِّهِ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ النَّظَرُ فِي مَالِهِ، وَهَذَا أَوْلَى، وَإِنَّمَا الْمُسْتَحَبُّ مَا زَادَ عَلَى هَذَا مِنْ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ وَفِقْهٍ وَأَدَبٍ، وَيُعَرِّفُهُ مَا يَصْلُحُ بِهِ مَعَاشُهُ[1].

---

[١] هذه الجملة في بعضها نظرٌ ظاهرٌ، فتعليمُ ما يتعين عليهم بعد البلوغ من الصَّلاة والطهارة والقرآن وشِبْهِه واجبٌ، لا إشكال فيه، ولا مَحظور فيه، لكن الزنا واللواط والسرقة، وشُرب الخمر في تعليمه إياها نَظَرٌ مِن حين الصِّغَر؛ لأن الصَّغير لا يطرأ على باله هذا الشيْء إطلاقًا، فكونُه يبقى على ما هو علَيْه هذا هو الأَولى.

وكذلك أيضًا الغِيبة وشِبهها أيضًا لا يعلمه، يَقول: الغِيبة حرام يا بُنَيَّ، وهو ذو سبعِ سِنين، أو ثَمانِ سنين، فما الذي يُدْرِيه عن الغِيبة؟

لكن إذا تكلم عنده في شخص، فقال له: لا تتكلم في النَّاس، لا تُعَيِّر النَّاس، وما أَشْبَهَ ذلك، فلا بَأْسَ أَنْ يُعَلِّمَه.

كذلك أيضًا يُعَرِّفُه بأنه إذا بلغ صار مُكلَّفًا ويعرفه ما يَبلغ به، وهذا أيضًا فيه نَظَرٌ، بل نَصبر حتى يُكَلَّف ونُخبره.

وَدَلِيلُ وُجُوبِ تَعْلِيمِ الوَلَدِ الصَّغِيرِ وَالمَمْلُوكِ، قَوْلُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ مَعْنَاهُ: «عَلِّمُوهُمْ مَا يَنْجُونَ بِهِ مِنَ النَّارِ». وَهَذَا ظَاهِرٌ.

وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**»[1].

ثُمَّ أُجْرَةُ التَّعْلِيمِ فِي النَّوْعِ الأَوَّلِ فِي مَالِ الصَّبِيِّ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ، فَعَلَى مَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ.

■ وَأَمَّا الثَّانِي فَذَكَرَ الإِمَامُ أَبُو مُحَمَّدٍ الحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ البَغَوِيُّ صَاحِبُ التَّهْذِيبِ فِيهِ وَجْهَيْنِ، وَحَكَاهُمَا غَيْرُهُ أَصَحُّهُمَا فِي مَالِ الصَّبِيِّ، لِكَوْنِهِ مَصْلَحَةً لَهُ، وَالثَّانِي فِي مَالِ الوَلِيِّ، لِعَدَمِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ.

لكن هناك بعض الأَشْياء إذا قارَبَ البُلوغ لَا بُدَّ أن تُخبره بها، ولا سِيَّما في الحيض للنساء؛ لأن كثيرًا مِن النِّساء تحيض وهي صَغِيرة، وتستحي أن تُعْلِمَ أهلَها فيفوتَها صلاة، ويفوتها صيام، فإذا قاربت المرأة البلوغَ، فيَنْبَغِي أن تُخْبَر بأن الحيض مِن علامات البلوغ، وأنه يحصل به التكليف.

فالحاصِلُ: أنه يُعَلِّمُه ما يَلْزَمُه مما لا محذور فيه، أَمَّا ما فيه المحذور، وفتح الأبواب، فَهَذَا لَا يَنْبَغِي.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم (٨٩٣)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، رقم (١٨٢٩).

▪ وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّافِعِيَّ وَالْأَصْحَابَ إِنَّمَا جَعَلُوا لِلْأُمِّ مَدْخَلًا فِي وُجُوبِ التَّعْلِيمِ، لِكَوْنِهِ مِنَ التَّرْبِيَةِ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَيْهَا كَالنَّفَقَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ[١].

[١] والصوابُ أن ما يحتاجه الصَّبيُّ يكُون في مالِه، وما لا يحتاجُه، وَلَكِنَّهُ زيادة نافلة، فإنه يكون في مال الولي.

(فَــرْعٌ)

أَمَّا عِلْمُ القَلْبِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ أَمْرَاضِ القَلْبِ، كَالْحَسَدِ وَالْعُجْبِ وَشِبْهِهِمَا، فَقَالَ الغَزَالِيُّ: مَعْرِفَةُ حُدُودِهَا وَأَسْبَابِهَا وَطِبِّهَا وَعِلَاجِهَا فَرْضُ عَيْنٍ.

وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنْ رُزِقَ الْمُكَلَّفُ قَلْبًا سَلِيمًا مِنْ هَذِهِ الأَمْرَاضِ الْمُحَرَّمَةِ، كَفَاهُ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُهُ تَعَلُّمُ دَوَائِهَا، وَإِنْ لَمْ يَسْلَمْ نَظَرَ إِنْ تَمَكَّنَ مِنْ تَطْهِيرِ قَلْبِهِ مِنْ ذَلِكَ بِلَا تَعَلُّمٍ، لَزِمَهُ التَّطْهِيرُ، كَمَا يَلْزَمُهُ تَرْكُ الزِّنَا وَنَحْوِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَلُّمِ أَدِلَّةِ التَّرْكِ، وَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ التَّرْكِ إِلَّا بِتَعَلُّمِ العِلْمِ المَذْكُورِ، تَعَيَّنَ حِينَئِذٍ، وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

---

[١] لكن هذه الأَشْياء انفعالاتٌ نفسية لا يُمْكن أَنْ يُعَرَّف الإِنسَان بحدودها، فمَثلًا الحسدُ والعُجب انفعالاتٌ نَفْسِيَّة، كل إنسان يعرفها، ولا تحتاج إلى تعريفٍ، لكن يُعرَّف بحُكمها، فيقال: الحسد مُحَرَّم، والعُجب مُحَرَّم، والكِبْرُ مُحَرَّم، وما أَشْبَهَ ذلك، وهذا أمر لَا بُدَّ منه.

لكن مِن النَّاس مَن يكون سليمًا منها مِن الأَصْل، لا يجد في قلبه حسدًا لأحدٍ، بل يُحِبُّ الخير، وإذا نال أحدًا مِن النَّاس خيرٌ فَرِحَ به، وكذلك بعضُ النَّاس عنده تواضعٌ عظيم، لَيْسَ عنده عُجب، وهذا لا يحتاج إلى أَنْ يُعرَّف حُكم العُجب؛ بل كما جاء في الحديث القدسي: «**مَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ**»[1].

وأما الإِنسَان الذي يُصاب بهذه الأدواء -نَسْأَلُ اللهَ السَّلامة- فعَلَيْه أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ يتخلص منها، وأن يحاول بِقَدْرِ ما يستطيع أَنْ يتخلص منها؛ لأنها أدواءٌ عظيمة فتَّاكة، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامة.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧).